نشأة المدينة القديمة على الرغم من قلة الإحصاءات الدقيقة والمعلومات الرسمية عن تاريخ نشأة المدن القديمة، إلا أن معظم المهتمين بهذا المجال قد اتفقوا على أن ظاهرة التمدن بمعنى الإقامة والاستقرار في المدن قد ظهرت في وقت مبكر جدا من تاريخ البشرية، ويقدرها المؤرخون بأكثر من خمسة آلاف سنة قبل الميلاد . غير أن عالم الاجتماع الحضري (كنجزلي ديفز) يعتقد أن البداية الفعلية لظهور المدن كانت حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، وتزامن مع بداية معرفة الإنسان للقراءة والكتابة .أما بالنسبة إلى تحديد المنطقة الأولى التي بدأ فيها ظهور المدن والحضارات التاريخية القديمة ، فهناك اختلاف كبير بين العلماء في هذا المجال. وقد لاحظ معظم العلماء أن التجمعات السكانية بدأت قديما بظهور الثورة الزراعية ، حيث أقيمت تجمعات سكنية تتكون من قرى صغيرة ثم كبرت شيئا فشيئا حتى تحولت إلى مدن كبيرة ومراكز حضرية ذات كثافة سكانية عالية .

ويرى غالبية العلماء أن المدن الأولى قد ظهرت في منطقة ما بين النهرين أو ما يسمى بالهلال الخصيب والتي ظهرت في الألف الخامس قبل الميلاد. ويرى آخرون أن أول حضارة إنسانية كانت في منطقة حوض النيل التي ظهرت في نفس الفترة تقريبا، وما زالت آثارها ومعالمها موجودة في جنوب مصر ومنطقة الجيزة حتى الوقت الحاضر. وترى فئة ثالثة أن أول حضارة ربما كانت قد ظهرت في منطقة الهند الصينية. ومن جهة أخرى لوحظ وجود حضارة متقدمة في أمريكا اللاتينية .

وفي الوقت الذي يعتقد فيه بعض العلماء بإمكانية وجود اتصالات بين تلك الحضارات التي تأثر بعضها ببعض في تلك الفترة، إلا أن بعض العلماء الآخرين يرون أن تلك الحضارات قد ظهرت في مناطق متباعدة عن بعضها من الناحية الجغرافية والزمنية، كما أنه لم توجد وسائل النقل أو المواصلات المتطورة أو الاتصالات المباشرة بين شعوب تلك المناطق، مما يؤكد أن تلك الحضارات كانت اجتهادات محلية وليست امتدادا لحضارات أخرى .

- مواقع المدن القديمة :.أظهرت بعض الدراسات الأثرية والتاريخية أن وجود المدن القديمة ارتبط بتوفر المناخ المناسب والموقع الجغرافي الصالح للتجمع السكاني وتربية الحيوانات وتطوير الزراعة، وبصورة خاصة توفر مصادر المياه والأرض الخصبة على الرغم من بساطة التقنية العلمية في تلك الفترة. ولعل خير شاهد على ذلك وجود معظم المدن التاريخية بجوار الأنهار والبحيرات والمناطق غزيرة الأمطار والمناطق معتدلة الطقس ، وهي توجد بصفة خاصة في منطقة الشرق الأوسط وشبه الجزيرة الهندية .أضف إلى ذلك توفر طرق المواصلات البحرية والبرية المتاحة في تلك الفترة، وذلك لنقل الإمدادات الغذائية والتبادل التجاري عن طريق المقايضة، حيث بدأ استقرار السكان في بعض مناطق العالم القديم، واستعملت العربات ذات الإطارات والمراكب الشراعية. كما تراكمت خبرات علمية في مجال الزراعة والهندسة والفلك، مما ساعد على ظهور مهن جديدة غير الزراعة ، حتم على السكان في المدينة الاتصال بالقرى المجاورة وتبادل الإنتاج الزائد فظهرت مجتمعات حديثة غير زراعية وطبقة من التجار

والصناع والمهن المختلفة، كما ظهرت مهن أخرى مثل المحاسبين والكتبة لحل مشاكل التجار ثم ظهرت الجيوش .وبذلك فإن المدن كانت قد نشأت في البداية لأسباب زراعية، ثم تطورت بعد ذلك لتكون لأسباب تجارية، ثم بعد ذلك لأغراض صناعية.وكان أساس تكوين هذه المدن هم الحكام والكهنة والموظفين والجنود والحرفيين والتجار، كما ظهرت مدن ساحلية أساسها التصدير والاستيراد والاستفادة من النقل البحري أو النهري . كما أن انتقال المزارعين من استعمال المحراث العادي والاعتماد على الحيوان إلى استعمال الأساليب الحديثة في الزراعة، ومن السكن في الأكواخ والكهوف والخيام إلى استعمال البيوت الحديثة واقتناء الأثاث الفاخر يعتبر أحد مظاهر الحياة الحضرية التي شاهدتها معظم بلدان العالم . ومن المعروف أن ظاهرة التحضر قد بدأت في الشرق الأوسط ثم انتقلت إلى الصين ثم إلى الهند ثم بعد ذلك بفترة طويلة انتقلت إلى القارة الأوروبية . ويلاحظ بصفة عامة أن انتشار المدن قد تأثر بالنشاط الزراعي ثم بعد ذلك بالنشاط الاقتصادي ثم السياسي والاجتماعي منذ الأزمنة القديمة حتى الوقت الحاضر. كما أنه يتطلب توفر قدر معين من المقومات الأساسية التي تساعد على تكوين تجمع سكاني مثل مصادر المياه، وتوفر مصادر الغذاء والتقنية التي تناسب تلك الفترة وذلك لتنظيم المدينة ولضمان الاستفادة من فائض الإنتاج وتوفر المواد الخام والأعمال الحرفية .

- ✓ كما أن العوامل السياسية والدينية لعبت دورا مهما في قيام المدن الكبرى، وامتداد نفوذها، ومن أمثلة ذلك مدينة روما التي وصلت إلى قمة مجدها عندما كانت الإمبراطورية الرومانية في القرن السابع الميلادي من أقوى الإمبراطوريات في العالم. كما تطورت وازدهرت بعض المدن الهندية في عهد إمبراطورية الموريا مثل مدينة دلهي وبعض المراكز الحضرية الأخرى في عهد الإمبراطورية المغولية . وقبل ذلك ظهرت حضارة ما بين النهرين، حيث ازدهرت بعض المدن في منطقة الهلال الخصيب خاصة في العراق كما ظهرت أيضا بعض المدن في عهد الدولة الفرعونية محاذية لنهر النيل في جنوب مصر ومازالت آثارها موجودة حتى يومنا هذا .

المدن التاريخية في حوض البحر الأبيض المتوسط :.ظهرت بعض المدن التاريخية في حوض البحر الأبيض المتوسط وهي مدن كانت من آثار الحضارة الفينيقية والإغريقية والرومانية .ومن بين هذه المدن صيدا وصور، ومدينة الإسكندرية ، ومدينة قرطاج.

حيث لوحظ أن هذه المدن لعبت دورا كبيرا في نقل الحضارة من منطقة لأخرى في الأزمنة الماضية .

ويخبرنا علماء التاريخ أن هناك كثيرا من المدن التاريخية قد اندثرت وظهرت على أنقاضها مدن أخرى ، الذي يرجع إلى عوامل داخلية

مثل :. العزلة المفروضة عليها من المجتمع ، كما وجدت في بعض مدن اليمن في الماضي. أو إلى عوامل خارجية مثل الغزو الأجنبي الذي قد يدمر بعض المدن كما حدث لمدينة بغداد التي زحف عليها التتار ودمروها في حقبة تاريخية قديمة .

مدن الحضارة العربية الإسلامية ومدن العصور الوسطى :.بعد ظهور الدين الإسلامي في بداية القرن السابع الميلادي ، انتشر بسرعة كبيرة في آسيا وشمال أفريقيا وجنوب أوروبا ، وظهرت نتيجة هذا الانتشار بعض المراكز الحضرية والمناطق التجارية

حيث انتشرت الثقافة الإسلامية ، كما قضى الإسلام على معظم الإمبراطوريات القديمة ، وسرعان ما شيد المسلمون المهاجرون بعض المدن شرقا وغربا ،

لعل أهمها مدن أصفهان وظهران وسيراج في إيران ، والبصرة والموصل وكربلاء في العراق ، حيث اعتمدت هذه المدن على التجارة والصناعة
أو الدفاع كما أن بعضها كانت متعددة الأغراض .
ويلاحظ أن بعض المدن أنشئت في العصور الوسطى وخاصة في غرب أوروبا ، وقد ظهرت هذه المدن بعد تأثرها بالحضارة اليونانية أو الرومانية أو العربية ، كما يلاحظ أن هذه المدن قد أنشئت لأغراض دينية أو دفاعية أو تجارية . ويصنف البعض هذه المدن على النحو التالي :.

١- المدن الدينية :. وهي تلك المدن التي كانت تعتبر مراكز إدارية لأجهزة الدين .
٢- المدن الدفاعية أو مدن الأبراج :. التي كانت محاطة بأسوار عليها أبراج للمراقبة والملاحظة، ولها بعض الأبواب عليها جنود، وكان على تلك المدن أن تدافع عن سكانها وعن سكان القرى المجاورة .

٣- مدن تجارية :.حيث كانت تروج التجارة بشكل واسع في ذلك الوقت خاصة بعد اختراع البارود والمدافع وبدء عهد الاستعمار الأوروبي للعالم ، مما أثر في ازدهار هذه المدن، كما ساعد ذلك على رواج التجارة والصناعات المختلفة .ويلاحظ عدم وجود تخطيط عمراني لتنظيم المباني في تلك الفترة. وعدم وجود شوارع منظمة أو ميادين عامة أو أماكن مخصوصة للمساكن وأخرى للمقرات الإدارية أو المناطق التجارية. حيث كانت البيوت متلاصقة والشوارع عبارة عن أزقة ضيقة وملتوية وغير مرصوفة، لأنها كانت مهيأة فقط لمرور الإنسان أو الحيوان نظرا لعدم وجود سيارات أو عربات في تلك الفترة .

٤- الكثافة السكانية في المدن القديمة :.كانت المدينة القديمة تتكون من خليط سكاني يجمع سكان المدينة من حرفيين وتجار وإداريين ورجال الجيش والمزارعين في المناطق المجاورة. غير أن معظم الدراسات عن المدن القديمة لم تضع في الاعتبار التقسيمات الاجتماعية والمهنية لسكان تلك المدن، كما أن الأرقام التي قدرت عدد سكانها كانت تخمينية، ولا يمكن الاعتماد عليها في المقارنة بسبب عدم وجود إحصاءات رسمية في تلك الفترة، وحتى إن وجدت، فإن السجلات لم يتم الاحتفاظ بها حتى الأزمنة الحديثة .